**أولا- السرد العربي القديم النشأة والتطور والخصائص:**

يشكل السرد العربي صورة جلية لنمو الأشكال الشفوية المتحولة الى نص مكتوب يوجد في حقول شتى وسط كتب الأدب المتنوعة ومؤلفات التراجم والسير والطبقات، ونصوص المقامات والأخبار، وكل التقييدات المحسوبة على التاريخ والجغرافيا الوصفية والرحلات أيضا في مؤلفات الفقه وعلم الحديث وعلم الكلام .

ذلك أن عملية الانتقال من الشفوي الى المكتوب سجلت بصمات أساسية في رسم تحول استراتيجي لبناءات مشتتة تحت معطف الشعر الدافئ وأشكال صغرى لتأريخ الزمن، و بعض أحداثه ضمن نسق المكتوب، فدراسة تشكل الآداب بتعبير -جان بسيير- تنتمي الى التاريخ، وتطرح مسألة التجانس والاستمرارية والطبيعة المشتركة أي الانتقال من الشفوي الى المكتوب، من المقدّس الى الدنيوي بحيث إن السرد العربي في تشكّلاته الطويلة والمعقدة، والطابع المحايث لبراغماتية النثر ووظيفته المتنامية، حقق الانتقال التدريجي، ومعه تحققت مسارات أخرى من التحول في مستويات شتى أبرزها تحويل التجربة الذهنية أو المعيشة من أفعال وتخيلات الى لغة شفوية ومكتوبة ضمن نسق تجنّسي معين([[1]](#footnote-2)).

الكتابة مثل التفكير ليست انعكاسا بسيطا للعالم وإنما هي نسق من الرموز والعلامات لعناصر واقعية أو عناصر من التجربة بنوعيها، ومكونات أخرى لا محدودة متداخلة، تتشكل باعتبارها بنيات أو عناصر مفردة، وذلك في إطار متخيل عام، حيث استطاعت المخيلة الصاهرة لكل العناصر (الثقافية) أن تكتنز الماضي الطويل، وان تبقي على الرغم من إحداثات الزمن الظرفية على الأسس الثابتة لاستمرارية الأمة الناقلة لتراثها في سياق التحولات التي قادت السرد العربي للانتقال من الشفاهية إلى المكتوب، كانت هناك عوامل محددة ساهمت في بناء نسق ثقافي مؤطر دينيا بظهور القرآن الكريم والإعجاز البلاغي، القصص القرآنية، وما أفرزته المرحلة في ارتباطها بأيام العرب الجاهلية، من انفتاح مجموعة من الرواة والمفسرين على سرد ما جاء في القرآن وذكر المغازي، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسير الأنبياء والأولين بالإضافة الى كتب شروح الشعر المختلفة والأمثال والتراجم والطبقات والتاريخ والبلدان ومهام الرواة في استعادة حكي أيام العرب.

هذه البنية الدينية المؤطرة بأهداف مرسومة ستعرف اتساعا ببروز أشكال محايثة تضفي التنوع على هذا النسق الثقافي الذي يحضر فيه السرد جليا، بحيث اتسعت الدائرة لتشمل سير الملوك الأوائل والحروب وأيضا أدب المسامرات، والعودة الى تقييد تواريخ ماضية حول بدء الخلق (الخليقة) ونشوء الإنسان وسط صراعه الذي لا ينتهي.

إن السرد الحكائي المدثّر بأهداف دينية يبتغي الوعظ والتثبيت متخذا متعة الحكي سبيلا خرج من معطف الشفوي، وأيضا التناقل الذي كان عملية ديناميكية تؤدي الى آثار بالغة الأهمية في تكوين النص الشعبي شكلا ومضمونا، ذلك أن التناقل الشفوي يحرر النص الشعبي من الأطر الثابة والمنتهي منها نتيجة التقيد بالكتابة، فجل التدوينات الأدبية في مختلف الأنواع المسبوقة بالشفوي وآثاره، والحضور القوي للمتلقي المتشبع بالحس الحكائي لن تسلم من نفس الحكي والأخبار عبر التقاط اللحظات الماضية في مستويات مختلفة متقاطعة ومرفودة بتأطير الحس البطولي، ووسط ملتقى حافل بتقاطعات حيوية، فيها الثقافي والديني والتاريخي والجغرافي والسياسي .

إن التداخل بين ما هو أدبي وتاريخي أتاح للسرد أن ينمو وينتظم داخل نسق مأهول بتفاعلات وبآثار شتى .ويلاحظ في شكلين بارزين هما([[2]](#footnote-3)):

* المؤلفات التاريخية
* المؤلفات ذات المادة الأدبية المتنوعة.

1. **المؤلفات التاريخية :**
2. وقائع التاريخ القريب وهي سرد بخلفيات دينية لتأكيد ما جاء به الإسلام.
3. وقائع التاريخ البعيد وهي المخلوطة بالخرافات والأساطير الأولى بما فيها الحروب وأخبار الأولين من شعراء وملوك بالاعتماد على مصادر شفوية.

* تضمنت هذه المؤلفات أنواعا سردية منها :

حكي حول الأشخاص: تبئير شخوص واقعية في الوجود، حّققت أثرا فعليا أو روحيا يعكس اعتبارا معينا، كما اشتهرت – ضمن كتب التاريخ– مؤلفات وفيات الأعيان والطبقات والأنساب والتراجم والوقائع.

يقول ابن حجر العسقلاني (773ﻫ/852ﻫ) في تقديمه: «هذا تعليق جمعتُ فيه حوادث الزمان الذي أدركته منذ مولدي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وهَلُمَّ جرًا، مفصلا في كل سنة (أحوال الدول) عن وفيات الأعيان مستوعبا لرواة الحديث نصوص من لقيته أو أجازلي، وغالب ما أورد فيه من شاهدته أو تلقيته ممن أرجع إليه أو وجدته بخط أثق به من مشايخي ورفقتي كالتاريخ الكبير»([[3]](#footnote-4)).

هناك أيضا؛ حكي يلتقط بعض الظواهر التاريخية والطبيعية: سواءٌ المفسرة أو غير المفسرة يروي العسقلاني أنه: «في سلخ جمادى الآخر كسرت جرار الخمر بالرميلة حملت من بيوت أساري الأرمن التي بالكوم قرب الجامع الطولوني.

وفي رجب جردت العساكر لردع عرب الشرقية الزهيرية (لكثرة) فسادهم .في أول يوم منه ادعى علي بن سبع شيخ العرب الزفتة بأشياء تنافي الشريعة، وشهدت عليه جماعة عند قاضي القضاة ابن خير المالكي، فسعى جماعة إلى أن خلص ونقل إلى الشافعية فحكم بحقن دمه»([[4]](#footnote-5))

قد تشكلت هذه الحكايات حول الظواهر بصياغات متعددَّة، مما أكسبها مسارًا حكائيا بشكل أكبر من الحكي الذي جاء حول الفضاءات، منظورا إليها تاريخيا ورمزيا وأسطوريا أيضا.

يروي المسعودي في هذا السياق، عن فضاء الإسكندرية قائلا: «ذكر جماعة من أهل العلم أن الأسكندر المقدونّي لما إستقام مُلكه في بلاده سار يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم وعُمدًا كثيرة من الرخام، في وسطها عمود عظيم، عليه مكتوب بالقلم المسند وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد –أنا شداد بن عاد بن شداد عاد شددت بساعدي البلاد وقطعت عظيم العماد، من الجبال والأطواد.أنابنيت إِرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد [...] ونزل إلاسكندر متفكرا يتدبر هذا الكلام ويعتبره ثم بعث فحشر الضياع وحط الأساس وجعل طولها وعرضها أميالا»([[5]](#footnote-6)).

هذه الأنواع الثلاثة (حكي حول الأشخاص – حكي يلتقط بعض الظواهر التاريخية والطبيعية - حكي الذي جاء حول الفضاءات) من السرود في المؤلفات التاريخية والأشكال المتفرعة عنها، تفرز الحدث الحكاية التي عادت ما تكون قصيرة ومحدودة، ولكنها تنسج في مجموعها بناء تأريخيا حول فترة زمنية أو فضاء أو ظواهر، ووقائع مرتبطة فيما بينها .

هذا البناء السردي يعتمد بنية الخبر استنادا عن طريق المشاهدة أو السماع أو مطالعة المؤلفات الكبرى من التاريخ، فضلا عن هذا فالنصوص التاريخية وغيرها، وهي تعيد بناء أبطال كانوا في الواقع المادي ثم الذهني مقابل نصوص حكائية، ترسم أبطالا في المتخيل الشعبي ووقائع تصاغ في سيافات جديدة تشترك في سمات تتكرر بنسب متواترة ذات حضور جلّي([[6]](#footnote-7)):

1. التشويق في الحكي
2. الجنوح الى الغرابة
3. عنصر الأرتحال والأنتقال
4. **المؤلفات ذات المادة المتنوعة:**

ساد هذا النوع فترة طويلة مخلفا مؤلفات تُعنى بالحديث في أبواب شتى، تفصيلا واستطرادا كاللغة، وأخبار الشعراء والمجالس الأدبية والتراجم، وأيضا وقائع حول الملوك والفرسان، أو بعض الغرائب والطرائف والمسامرات والشروح، أنها نوع من الكتابة المتنوعة التي تبرز تعدد إهتمامات المؤلف والرغبة في التاريخ للشتات السردي الباحث عن أفق أجناسي يترسّم عبرهُ وينمو.

ففي مؤلفات أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي، نقط إلتقاء حول منطلقات عامة، أجلاها أن هذه المؤلفات تتمحور حول الأدب، وتتضمن الرغبة في الحكي المؤّنث بالإنفتاح على إستطرادات في أنواع أخرى.

إذا كانت مؤلفات التاريخ والنصوص ذات البناءات المتنوعة قد تشربت بطريقة أو بأخرى النصوص الدينية ذات الإعجاز البلاغي وعلوم الفقه والتفسير ومحكيات المغازي وما تشعب عن كل هذا فإنها جمعت شتاتا حكائيا ثريا يتأرجح بين تاريخ الوقائع والأخبار من جهة، والتخيّلات الناعمة والقاسية من جهة ثانية. محكيان ينتسبان إلى دائرة واحدة تتخصب وتتولد في أشكال أخرى وبتلاوين مختلفة شأن مؤلفات التراجم والسير وغيرهما ومع نضج الوعي بالسرد باعتباره كتابة وسط تشكّل الدولة، وفي إطار المثاقفة، أصبحت الحاجة ضرورية إلى توسيع إضافي في دائرة السرد حتى يساير التحولات، ويلتقط الطارئ، بحثا عن تفسيرات له وأيضا تدوين ما لم يكتبه الكلام الموزون المقُفَّى، وعجنه في نسيج تخييلي، يربط الواقع بفوق الطبيعي الطاعن في الغيب والعجيب.

وتدقيقا فابتداء من القرن الرابع الهجري ظهرت أشكال سردية تخيط الشتات وشذر التحول من القبيلة –بعصبيتها –الى الدولة في شكلها المستعار حين أو الناقص حينا آخر بحث عن كمال مزعوم يضاهي الروم حضارة، والإغريق ثقافةً، والعهد الراشديّ عقيدة([[7]](#footnote-8)) .

* جاءت الأشكال السردية في قطبين كبيرين هما([[8]](#footnote-9)):

1) **الأشكال الخالصة** :المقامة والسيرة والحكاية الشعبية، الرحلات....

2) **الأشكال** **الهجينة**: فيندرج ضمنها الخبر والمحكيات الصغرى المتفرقة ثم أدب القيامة والتراجم والطبقات وأخبار الشعراء.

لا تنفصل هذه الأشكال الخالصة عن الهجينة إذْ هما معا يتفاعلان باستمرار مع المصنفات المدرجة ضمن ما أخضعه الفكر العربي للتصنيف، فصنّفت أنماط الناس وكتب عن كل صنف فظهرت كتب في أخبار الظرفاء والأذكياء، وفي أخبار المجانين والمغفلين والحمقى والطفليين، وعلى هذا النمط ظهرت الكتب في الحيوانات وعجائب المخلوقات وكتب في خصائص البلدان، الى غير ذلك من الكتب التي تختص بظواهر الحياة كافة.

حيث تطورت وارتبطت بتقاليد المجتمع وعاداته وذاكرته فالتقطت المقامة مادتها الخام من اخبار الشُّطّار والكدين في علاقتهم بذواتهم وبالمجتمع وبالآخرين كما سعت السير والحكايات والشعبية والرحلات الى رصد تفاصيل حيوات متخيّلة إن الأشكال الخالصة قائمة بذاتها تمكنت من خلال النصوص المتوفرة ذات النضج ألفني من التعبير عن مرحلتها، وإفراز مجموعة من الخواص المشتركة بينها، فضلا عن **خصائصها النوعية المميزة لها** ولسماتها، وحتى بعض أهدافها هذه الخواص يمكن اختزالها في:

**ثلاث مستويات :**

أ)- **اللغة والأسلوب:** يحفل سرد الحكايات باللغة عبر الاتكاء على تخليلات من الشعر والأمثال والآيات القرآنية، بعض الاستشهادات المتنوعة ثم أسلوب التشويق والتسلسل الخطي المدعوم بالاسترجاعات والاستطراد لكن طريقة بناء الجملة وتقديمها يبقى في المقامة غيره في السيرة أو الرحلة أو المغازي أو التراجم.

**ب**- **هيمنة الفرد البطل** : وذلك من خلال حضور قوي لعنصر الفرد المهيمن في المقامة باعتباره المحور الذي تنتسج حوله الأحداث، وأيضا السير الشعبية التي تُؤسطر الفرد، وتجعل منه رمزا وصورة فوق طبيعته للنموذج المطلوب أما الحكاية الشعبية فهي لا تستقيم إلا عبر تبئير المفرد المتعددة.

وفي كل الحالات يمكن الحديث عن خلفية هذا الإضاءة الموجهة نحو الفرد وذلك بذاته الكتابة عند جميع الشعوب وفي كل المراحل، الرغبة الدفينة للإنسان العربي في التماهي مع أحلامه تجاوزا لعجزه وتحقيقا لكماله المفقود.

**ﺟ- المتخيل:** وهو خطاب يجد لنفسه قطبا واسعا وتتفاعل فيه العديد من المتغايرات، ولكنه، في العام يتشكل داخل قطب المواجهة والتصادم بين وعيين وإرادتين :

* وعي الساذج ≠ وعي الشاطر (المقامات)
* وعي الكافر≠ وعي المؤمن ( السير الشعبية)
* وعي الشر ≠ وعي الخير ( الحكايات الشعبية ...)

ويقوم بناء الحكاية على دعامات العجائية والغرائبية، والتي تخلف لدى المتلقّى نوعا من الحيرة والتردد([[9]](#footnote-10)).

رغم كل الخواص المشتركة، فقد نما السرد العربي مُؤسّسّا لاختلافه في البناء وطريقة عرض الأحداث سواء بالنسبة للأشكال الكبرى أم الصغرى الخالصة أم الهجينة كما ترعرع ضمن مجددات دينية وثقافية ومؤطرة متنوعا يتلاحق ويتخصب بعناصره المتحركة فضلا عن كون السرود القديمة التي صيغت في أشكال تخيلية مختلفة تفسر رؤية أو تدعم شعيرة دينية.

الأمر الذي يقود الى التقاط خلاصات أولية بالنسبة للسرد العربي في جانبه الحكائي:

ترعرع السرد الحكائي العربي في بيئة ثقافية انفتحت على أشكال متنوعة تفصح عن تجذر الحكي والخبر في الأدب العربي، ابتدأت بالمغازي التي تمثل أولى أشكال الإبداع الشعبي، منذ بداية عهد الثقافة الإسلامية على أيدي ابن اسحاق، والواقدي وغيرهما وقصص الأنبياء وأخبار الأولين والسير ثم تطورت مع الحكايات والمقامات والرّحلات.... وهي نصوص يتقاطع فيها المرئي من المشاهد بالمسموع والمختلق والخيالي، وكل هذا ينصهر ضمن موروث ثقافي وديني وحضاري عام.

* حضور السمات التحويلية في بناء الخبر المرتوي بآثار الشفوي لكن سلطة التحويل تضع التجربة في مسار نسقي يصهرها ويعيد إدراكها ذهنيا مرة أخرى، تهيئيا لتدوينها .
* تموقع السرد بين التأريخ والتقييد، بين التجربة الفعلية والروحية، مما مهّد لنوع من الإدراك الخاص للواقع (الماضي والحاضر والمستقبل من جهة، والدنيا والآخرة من جهة ثانية ).ساهم في آلية كتابية تسعى إلى تخييل الحقائق وتحقيق الخيالات.
* تجذر خاصية التوالد بشكل كبير في السرد العربي باعتبارها النّفس الذي سيرسم للحكاية رحمها العامر بالتشويق والغرابة .
* مهيمنات كثيرة شكلت خواصّ متواترة في النصوص السردية لمجموعة في مؤلف واحد كالسير والليالي والمقامات أو النصوص الصغيرة الممثِّلة لحكاية واحدة حول موضوع واحد.

ومن ضمن هذه المهيمنات التي تتكرر وتشكل جزءا من البنية العامة في الحكاية (مهيمن الرحلة) سواء أكان رحلة المؤلف الباحث عن الحكاية أم شخصيات المحكي، لارتباط هذا المهيمن دائما بالمفاجآت والجديد دلاليا.

أما شكلا فمن أجل توسيع دائرة الحكي، وخلق نوافذ تنفيسية داخل عنصر آخر هو (مهيمن السيرة) الذي تشكل ضمن آداب التراجم والمغازي والأخبار.

**ثانيا- أدب السير:**

**تمهيد:**

حظي الخطاب السيري بانتشار واسع في الثقافة العربية الإسلامية، واتسع الاهتمام بها ليشمل شرائح من المجتمع كان الهدف من تدوين حياتهم أو جزء منها هو التأريخ للشخصية وأخذ العبرة منها، وعندما نتأمل الكم الواسع الذي يضمه الخطاب السيري يتضح بما لا يدع مجالا للشك أن هذا النوع السردي استطاع أن يؤسس لنفسه نسقا خاصا في الثقافة العربية فقد امتد من سير الشخصيات الدينية أولا: الرسول (ص) والخلفاء الراشدين، وبعض الصحابة المتميزين إلى الشخصيات السياسية في الأزمنة واللاحقة للعصر الإسلامي، واتسعت أكثر لتشمل شخصيات المتصوفة وما تحفل بها حياتهم من مناقب وكرامات.

لماذا هذا الاحتفاء بالسيرة في الثقافة العربية الإسلامية؟

كان للاهتمام بالأنساب دورا أساسيا في توجيه التأريخ عند العرب فالخطاب السيري هو خطاب تولد من الاهتمام بالأنساب الذي طبع السلوك العربي لفترات تاريخية معينة.

**1- تعريف السيرة**([[10]](#footnote-11))**:**

يحيل لفظ (السيرة)، دلاليا على الطريقة، وتقترن أنها السنة فثمة تلازم بينهما، فسنة القوم: طريقهم، وسيرتهم، ولهذا فمن المعاني الأساسية للسيرة الطريقة المحمودة المستقيمة كما تدل السيرة على الحديث فيقال "سيّر سيره: حدّث أحاديث الأوائل تشير الدلالة الأخيرة إلى أمرين، الأول: تضّمن اللفظ معنى الخبر أو الحكاية) والثاني الإشارة إلى قدم مرويات السيرة، بدلالة ربطها بأحاديث الأوائل، وأصبحت السيرة بدلالتها الاصطلاحية في المجال الديني تحيل على (الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد) واقترنت المغازي واستعملت مفردة ترجمة في الاصطلاح بمعنى سيرة لكنها ظلت تدل على تاريخ الحياة الموجز للفرد، وإن كان هناك فرق بين السيرة والترجمة ليس في طبيعة الآثار الأدبية التي تحيل عليها المفردتان فقط، بل في الاستخدام الشائع لهما في المصادر العربية أيضا، ففيما كانت السيرة تحيل على المرويات والمدونات التي عنيت بشخص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كانت الترجمة تحمل على خلاصات موجزة للتعريف بأعلام الحديث والفقه والأدب واللغة والطب والحكمة...إلخ.

ينبغي أولا الوقوف على السيرة النبوية، فهي النص المؤسس للشكل السردي أو على الرغم من تأرجح مدونات السيرة النبوية بين تأسيس الشكل السيري، وتوظيف إمكانيات فن الخبر، فمن ناحية سردية كانت تلك المدونات إطارا دُمجت فيها شذرات كثيرة من جهود الإخباريين، والنسابين، والمؤرخين، والأدباء، والمحدّثين، وسواهم، ولهذا تعد السيرة النبوية ذخيرة لجهود الجميع.

**2- السيرة النبوية: الأصل المؤسس**

أصبحت حياة الرسول بعد وفاته مباشرة، وخلال القرون اللاحقة، موضوعا لعدد كبير من المرويات ولحقه ما تركه محمد بن إسحاق (151ھ/768م) التي تعد مدوناته الصورة شبه الكاملة لمرويات كثيرة ومتناثرة كانت تتداول مشافهة قبل أن يأمر المهدي ابن اسحاق بتدوينها، بيدا أن الصورة النهائية للسيرة النبوية، إنما تكاملت على يد عبد الملك بن هشام (213ھ-828م) الذي إشتهر بحمل العلم، سبق هذا التدوين إطار سردي شفوي للسيرة، حيث استأثر كل من عروة بن الزبير وأبان بن عثمان باهتمام المصادر الأساسية وكان الزهري من أعلام الرواة الذين تعد مروياته الأصل الذي قامت عليه مدونات ابن إسحاق([[11]](#footnote-12)).

**3- الأشكال السردية للسير العربية:**

انبثقت السيرة النبوية من وسط المناخ السردي الشفوي في القرن الأول الهجري، ثم استقامت هيكلا في النصف الأول من القرن الثاني، فجذبت إليها كثيرا من المأثورات الإخبارية، والقصصية، وتجلّت فيها جهود الرواة، والمحدّثين، والإخباريين، وبالتداول تبلور شكلها العام، ولم يقتصر على شخصية الرسول فكثير من الرجال حوله استأثروا بمكانة متميزة، وكثير منهم أسهم في تأسيس التحولات الكبرى في المجتمع الإسلامي، ولهذا ظهرت الحاجة إلى تدوين أخبارهم، والتعريف بهم وبسواهم من الشخصيات في العصرين الجاهلي والإسلامي، إلى ذلك فإن عملية جمع الموروث الشعري، والسردي، والإخباري، والديني، التي انطلقت بقوة في القرن الثاني سرعان ما أظهرت للوجود مدنا ثقافية كالبصرة والكوفة، وفيهما وفي غيرهما من المدن الأخرى نشط تداول المرويات وتدوينها، كما أن التفاعل الثقافي العارم في تلك المدن شجعّ العمل في هذا المجال، فانطلق الرواة إلى الحجاز، واليمن، ونجد، وعمان، وشرق الجزيرة، وإلى مواطن القبائل العربية، ومواقع الأيام الجاهلية والإسلامية، لتقضي أخبار الشعراء، وجمع اللغة، والحديث، والأشعار والأمثال، ومرويات أيام العرب، وفي تلك المدن التي قامت بتأصيل الثقافة العربية عرفت العقود الضمنية الأولى بين الرواة الشفويين والمدوّنيين الأوائل، فظهرت أولى المصنفات الكبيرة مدونة، وبدأت تتبلور شروط الرواية، وشروط التدوين، وبرزت أهمية الإسناد بوصفه الطريقة الوحيدة في الثقافات الشفاهية للتحقق من صدق الأخبار والمرويات، وترسخ الإسناد كوسيلة للتواصل بين ثقافة الحاضر وثقافة الماضي، فكان يمثل الإطار الذي يقوم بترتيب المرويات وتوثيقها.

**أ- التراجم:**

لا يخفى الباعث الديني وراء ظهور التراجم وطبقات الرجال في شتى حقول الأدب والمعرفة، ذلك أن العناية بالرجال كان يراد بها أولا؛ خدمة الحديث النبوي بالحكم على رواية، ووزنهما بأدق الموازين([[12]](#footnote-13)).

تمثل التراجم جزءًا كبيراً من الموروث الفكري والأدبي، يصعب حصره، امتد إلى جمع حقول النشاط الثقافي، وتنهض التراجم على قواعد محددة تهدف إلى التعريف الموجز بالمترجم له، اسما وكنيته ولقبا، تعقبها وقفة وجيزة على أخباره ونتاجه الأدبي أو العلمي تناسب أهمية الشخص وتتراوح هذه التراجم بين أسطر قليلة.

تمنح وجهة نظر المؤلف الشخصية الترجمة طابعا ذاتيا وأدبيا، وأسلوب التعبير هو الآخر يشحن التعريف أحيانا بسمات أدبية، على أن البذور السيرية الأولى في التراجم لا تخفي تأرجحها بين التوثيق والتعبير، فالهدف التعريفي يحول في كثير من الأحيان دون الارتفاع بالمستوى التخيلي إلى درجته التمثيلية الأدبية، وفي جميع الأحوال تعتبر التراجم أدبا إستعاديا تجري فيه عملية بناء صورة للشخصية إستنادا إلى سلسلة متضاربة أحيانا من المرويات، فارتسامها عند المتلقي يتشكل طبقا لوجهة النظر المؤلف، وطريقة ترتيب المرويات، ودرجة التحيزّ، وهذه مكونات أدبية، ففي الأدب السيري ينحو التركيز إلى الكيفية التي تتم فيها عملية تركيب صورة الشخصية، أكثر من انصرافها إلى المواد المكونة للصورة نفسها.

**ب- السير الوضوعية:**

نصطلح ب"السير الموضوعية" على تلك التراجم المستفيضة التي تؤلف كتبا قائمة بذاتها، معروفة المؤلف وتعني بأعلام معروفين على نطاق واسع، وتفصّل في حياتهم، وأعمالهم وآثارهم، وتهتم بالموقع الاعتباري لهم على المستويات التاريخية، والفكرية والأدبية السياسية، وتقدّمها بوصفها أنموذجا يحتذى في عصرها، شأن سيرة بن الخطاب لابن الجوزي، وسيرة أحمد بن طولون للبلوي....([[13]](#footnote-14))

تحكم السير الموضوعية قواعد محددة يتبعُها كُتابها وهي: الوقوف المفصل على شخصية صاحب السيرة، وما يميز السير الموضوعية عن غيرها من أشكال السير العربية أنها تعني بشخصية استأثرت باهتمام الناس، وأصبحت مآثرها معروفة وشائعة، فتأتي السيرة الموضوعية كجمع كل ذلك في إطار واحد، وتقوم السيرة بوصف المركز الاعتباري الذي بلغته الشخصية وتضفي عليه أوصافا كثيرة هي نتاج المرويات الإخبارية حول تلك الشخصية، يحاول كتاب السير الموضوعية إضفاء سمات شبه خارقة على الشخصيات، لذلك هي تمثل مرحلة من التعبير السردي تقع بين التراجم والسير الشعبية.

**ﺟ- السيرة الذاتية:**

عرف الأدب العربي شكلا آخر من أشكال السيرة، وهي "السيرة الذاتية" حيث يتكفّل أصحابها بكشف تكّونهم الفكري، وتطورهم الروحي، والثقافي بشكل عام، وهو ما جعلها ترتبط بالفلاسفة والعلماء، والفقهاء والمؤرخين، وتشكل السير الذاتية بابا ضخمًا في الأدب العربي القديم.

تورد المصادر التاريخية سيرة مبكرة لسلمان الفارسي **(36ﻫ-656م)** يسندها الخطيب البغدادي بن عباس **(68ﻫ -687م)** وإذا صحت نسبه السيرة مدّونة تكون من أوائل المرونات في الثقافة العربية ويورد بن سعد بعد ذلك، في كتابه (الطبقات الكبرى) سيرة للواقدي **(206ﻫ-25م)** الضليع بمرويات السيرة النبوية، ثم يتوالى ظهور السير الذاتية العربية، فتزامن مع التطور الثقافي المتنّوع، وتزدهر بمرور الزمن([[14]](#footnote-15)).

لو نظرنا إلى السير الذاتية من جهة نظر تاريخية نجد أنها طبقا للسير الأولى التي ذكرناها لسلمان الفارسي والواقدي، ظهرت في محضن الثقافة العربية الإسلامية، لكن هناك من يذهب إلى أن هذا الفن مستحدث عند العرب 'قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرأوا آثارها، وخاصة اليونان وهذا الرأي يعتمد على ما قال به جرونباوم من أن أول من ترجم لنفسه جالينوس، وأن العرب أخذوا عنه ذلك، كما أنهم عرفوا تعريب ابن المقفع لسيرة برزويه التي وردت في مقدمة كتاب كليلة ودمنة في النصف الأول من القرن الثاني، وشيئا فشيئا استأثر هذا الشكل من أشكال السيرة باهتمام المفكرين والمؤرخين، ورجال الدين فظهر عدد كبير من السير الذاتية للرازي، وابن الهيثم، وابن رضوان، حنين بن إسحاق، والغزالي، وابن طفيل، وابن الجوزي، وابن خلدون، والغزّي والمرادي، وابن حزم، والسيوطي، وابن حجر العسقلاني والمحاسبي والشعراني، وعشرات غيرهم.

كانت السيرة الذاتية قصيرة مختزلة في أول أمرها، ثم راحت تتوسّع قرنا بعد قرن، يقول روزنتال: "أن النقطة الرئيسية في كل التراجم الذاتية العربية، هي وصول الشخص إلى الإيمان بمذهب من المذاهب، أو دين من الأديان"([[15]](#footnote-16)) وهذا التعميم يحيل على عناية كتّاب السير الذاتية بجانب التشكل العقائدي والفكري لهم، ولهذا فهم يغفلون الجانب الوجداني لشخصياتهم، ويحاولون التأكيد على الجانب الاعتباري لتكونهم الذاتي متّبعين الأساليب المباشرة في التعبير حينا، كما والايماء والرمز والتلميح حينا آخر، كابن طفيل، أو استعمال الأسلوب المباشر في التعبير عن الذات يتجّلى في سير ابن سينا والغزالي وابن خلدون.

**- سيرة ابن طفيل:**

قام ابن طفيل (**581ﻫ**-**1185م**) في اختيار طريق التصوف، وصولا إلى "حكمة الإشراق" وهي المرحلة الأكثر سموا في التصوف الروحي والعقلي، التصوف القائم على النظر، والتدبر، والاعتبار، ثم الكشف، والإشراق، وهو يستعين بأكثر أساليب التعبير غموضا وإيماء وتعمية لتدوين سيرته الذاتية، مستعيرا حكاية رمزية تمثيلا لخياره العقائدي، وبحثا في فلسفة الإشراق عنده.

عدَّ كتاب "حي بن يقظان" منذ القدم خطابا في الفلسفة، وهو مملوء بالإيحاءات الفلسفية، ففي حياته تتردّد كثير من تلك الأفكار، وقراءته بوصفه سيرة ذاتية لابن طفيل، توجب بحثا خاصا في دائرة الإشراق، حيث تتنفس هذه السيرة أنسام ذلك الإشراق.

نلاحظ أن حي بن يقظان تمثل كل هذا، تمثلا حيًا وعميقًا، وطبقه تطبيقا كاملا، وهو في مغارته، فأفلح في بلوغ مرحلة الكشف والمشاهدة، عبر المعاينة والنظر أولا، والبحث والتقصي ثانيا، ثم التماهي في ذات الخالق أخيراً، لتسطع في داخله أنوار الإشراق([[16]](#footnote-17)).

إذن التوسل بالسرد الرمزي مكّن ابن طفيل من تمويه دعوته إلا على مَن هم في مقام نفسه، كما حرر وسائله التعبيرية في كشف ما لا يُكشف بالوصف والحجاج والتحليل.

**د- السير الشعبية:**

هي قصص مستقاة من التراث العربي. تمجد فيها الأخلاق العربية الأصيلة كقوة العربي وعزته وشهامته وتنكر فيها الأخلاق السيئة كالخيانة والغدر تتميز ب:

* الصور المتخيلة للإيصال العظام في التاريخ العربي والإسلامي.
* تستدعي أشهر فرسان العرب ليكونوا أبطال عصور غير عصورهم فهو نوع من استحضار الماضي المجيد) لمواجهة عصر، انحسر فيه الدور العربي- الإسلامي تعلق الجماعة الإسلامية لمواجهة بذكرياتها. كعنتره بن شداد، وسيف بن ذي يزن، الأميرة ذات الهمه، السيرة الهلالية، وأبي زيد الهلالي، الظاهر بيبرس...
* الحروب الصليبية في العصور الوسطى وما ستدعته من وجوب حضور هذا النوع من السرد.

تظهر حاجة لها؛ حيث يقول الباحث.

* فاروق خورشيد، "حاجة العرب لشكل إسلامي للتعبير الأدبي يبعدهم عن الارتباط بالأشكال الأدبية المنحدرة من الأسطورة الوثنية القديمة".
* تطور أيام العرب (أخبار كثيره).
* ظهرت هذه المرويات بخط مواز للمغازي([[17]](#footnote-18)).

1. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006 ص19. [↑](#footnote-ref-2)
2. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص23. [↑](#footnote-ref-3)
3. () ابن حجز العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ، مراقبة محمد عبد المفيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، ج1، ص244. [↑](#footnote-ref-4)
4. () المرجع نفسه، ج2، ص329. [↑](#footnote-ref-5)
5. () المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: أسعد داغر، دار الأندلس بيروت، (4 أجزاء)، ط6، 1984، ص ص410-411. [↑](#footnote-ref-6)
6. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص27. [↑](#footnote-ref-7)
7. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص29. [↑](#footnote-ref-8)
8. () ينظر، المرجع نفسه، ص31. [↑](#footnote-ref-9)
9. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص32-33. [↑](#footnote-ref-10)
10. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، دار فارس للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2005، ص174. [↑](#footnote-ref-11)
11. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص175. [↑](#footnote-ref-12)
12. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص181. [↑](#footnote-ref-13)
13. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص182. [↑](#footnote-ref-14)
14. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص183. [↑](#footnote-ref-15)
15. () ينظر،المرجع نفسه، ص183. [↑](#footnote-ref-16)
16. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص186. [↑](#footnote-ref-17)
17. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص194. [↑](#footnote-ref-18)